تطور النهضة الثقافية في الشام والمجمع العلمي اللبناني

الأستاذ محمد جميل بيرم

(لبنـــان)

كثيرا ما لاحظت ان الباحثين في موضوع تاريخ الثقافة العربية يغفلون عن ذكر المجمع العلمي اللبناني ويعود ذلك الى قلة السنين التي قضاها ، والى تقصيرنا ، نحن اللبنانيين ، في تدوين اعماله . وهي اعمال غير قليلة بالنسبة لعمره .

وقد رايت ان اتلافي هذا التقصير على ان اتخذ هذه المناسبة فرصة لعرض ناحية مهمة في تاريخنا ، واعني بها ناحية تطور نهضتنا الثقافية في بلاد الشام على مر العصور حتى الآن وذلك بصورة موجزة تتناول الخطوط الكبرى بحسب رابطة الاسباب بالمسببات .

العالم العربي خلال ثلاثة قرون

لما وضعت كتابي « العرب والترك في صراع بين الشرق والغرب » الذي صدر سنة 1957 جعلت هذا العنوان عنوانا للفصل الثالث منه . حيث بينت بالادلة ان القرون الثلاثة التي تبدأ بمطلع القرن الثامن الميلادي وتنتهي بختام القرن العاشر كانت قرونا ذات طابع عربي في العالم ، سواء اكان ذلك في النواحي السياسية والتجارية والصناعية أم في النواحي الصناعية والزراعية والثقافية ، وانها كانت كلها تقتبس من معين الحضارة العربية . ثم جعلت عنوان الفصل الرابع «اين من سادوا وشادوا وبنوا ؟ ذلك الفصل الذي تناول انهيار العرب ، وتغلب الاعاجم عليهم الى ان استأثر بالحكم آل عثمان . وليس المجال هنا فسيحا للتبسط في جميع اطراف هذا الموضوع ، وانما اكتفي بالناحية الثقافية منه ، وبالخطوط البارزة من هذه الناحية فقط ، وذلك نتيجة للاحداث السياسية .

الحملات الصليبية

لقد دعا كل من البابا سلفستر الثاني في سنة 393 هـ ـ 1002 م والبابا غريغوار السابع في عام 468 هـ ـ 1075 م ملوك اوروبا واصحاب الاقطاعات لتخليص بيت المقدس . ولكن دعوتيهما ذهبتا ادراج الرياح . حتى اذا ما شب الخصام بين الاسرة السلجوقية بعد موت السلطان ملكشاه ونشبت الحروب بينها بعد نحو عشرين سنة من هاتين الدعوتين كانت صرخة ناسك فقير هناك كافية لجمع كلمة الاوربيين من اجل انقاذ قبر المسيح . وقد حملوا على بلاد الشام ثماني حملات كانت اولاها في سنة 409 هـ ـ 1096 م ، والاخيرة في سنة 669 هـ ـ 1270 م .

وبين هذه وتلك استقر الصليبيون في بلاد الشام مدة طويلة ، وتسلطوا على بيت المقدس الى ان تصدى لهم ، عقب الحملة الصليبية الثالثة ، صلاح الدين الايوبي سلطان مصر والشام 532 ـ 589 هـ ، 1137 ـ 1193 م واخرجهم من فلسطين وما حولها، ثم كان المماليك البحرية خلفاء الايوبيين بمصر سبب صد الحملات الصليبية الاخرى عن مصر ، واخراجها من كافة بلاد الشام .

غير ان هذه البلاد ظلت نحو جيلين دار حرب فكسد فيها سوق العلم والادب ، ولولا الحاجة الماسة الى العلوم الدينية لانصرف الناس عنها ايضا . هذا فضلا عن كون اكثر بيوت العلم قد اقفلت في تلك الحقبة وان المكتبات قد احرقت بفعل تلك الحروب . وحسبنا ان نذكر ان مكتبة طرابلس التي احرقت في عهد الصليبيين ، او احرقوها ، كانت على ما قيل تحفل

بثلاثة ملايين مخطوطة . وكل ذلك كان من اسباب ذيول الحضارة العربية في المشرق .

الحملات المغولية

وجاءت النكبة الثانية على الحضارة العربية من المشرق فاودت بها . ففي غضون الحروب الصليبية خف المغول الى اكتساح بلاد الشام . وهم قوم غزاة كانوا ينزلون في منشوريا بين نهري سنكاري والايرتس طالما هددوا الصين ، وتعرضوا لها حتى اضطر احد اباطرتها شي هنغ تي لتشييد السور الكبير ، ابتداء من سنة 240 الى سنة 210 ق م ليكون سدا بين بلاده وبين هؤلاء المنشوريين . وهو على ما اثبت بكتابي « الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية كانك تراهما » بعد زيارتي له هو نفس سد ذي القرنين الذي ورد ذكره في القرءان الكريم . غير ان هذا السور لم يقو فيما بعد على دفع غارات المغول، بل ان ملكهم جنكيزخان الذي انشأ امبراطورية كانت تمتد من بحر اليابان الى بحر قزوين فقد تعداه الى الصين وفرض على حكومتها الشرقية جعلا لقاء حراسة الحدود ؛ كما ان ولده كوبيلاي نقل عاصمة بلاده من قرة كروم الى بكين .

وكان جنكيز خان يرنو بعين الطمع الى بلاد الاسلام لما بلغه عن خيراتها وعمرانها ثم لما علمه من تنازع ملوك الترك في اطرافها ؛ بالاضافة الى ضعف الخلفاء العباسيين الذين لم يترك لهم هؤلاء الاعاجم الا السلطة الروحية ؛ فتقدم اليها حتى استولى على تركستان . ولكن الاجل عاجله قبل ان يدرك امنيته من البلاد العربية . ولما بويع الخان منكو بن طولي سنة 1246 م عهد الى قائده هولاكو فتح بغداد، كما عهد الى قادة آخرين اكتساح اقاليم اخرى .

وقد ارسل هذا الخان وفدا الى لويس التاسع ملك فرنسا في قبرص ، وهو قائد الحملة الصليبية السابقة . يدعوه فيها للاتفاق بينهما على المسلمين ، كما ان عطف هولاكو على النصارى ــ اذ كانت امه وزوجته مسيحيتين ــ اغرى البابا اسكندر الرابع بدعوته الى اعتناق دين المسيح لقاء وعد منه بمساعدته على المسلمين، ولكن هولاكو استنكر هذه الدعوة وبقي على دين بوذا وعلى الرغم من وحدة الهدف بينهما فلم يصلا الى توحيد العمل وانما اقتصرت العلاقات بينهما على التواد والتعاطف .

ولما دخل هولاكو بغداد سنة 656 هـ ــ 1258م قتل المغول ما يزيد على مليون رجل فيها والقوا في دجلة كتبها وكانت ، على قول مجلة الهلال م 19 ص 392 ، « شيئا لا يعبر عنه » ثم لما استتب له الامر فيها سير جنوده الى فتح الشام ، وقد تمكنوا من الاستيلاء عليها حتى بلغوا غزة ، غير انهم لم يتعرضوا للثغور التي كانت لا تزال في حوزة الصليبيين، واهمها انطاكية ويافا وعكا . اما فظائعهم فيها ولاسيما في حلب فعلى قول ابن العبري تجاوزت الحد الذي ارتكبوه في العراق . وكان اشدها تعرضهم للمكتبات التي كانت زينة الحضارة العربية وقوامها .

نتائج الحملات الصليبية والحروب المغولية في الناحية الثقافية

ان الملوك اذا دخلوا قرية جعلوا عاليها سافلها فيكفي القول ان بلاد الشام كانت دار حرب تتناوشها من الشرق والغرب طوال ثلاثة قرون ونصف القرن اي من مطلع القرن الحادي عشر للميلاد الى اواسط القرن الثالث عشر يكفي هذا القول لتقدير سوء احوالها المادية والمعنوية فضلا عن الثقافية . ولاسيما اذا اضفنا الى ذلك الحروب الداخلية بين الاسرة السلجوقية ، ثم بين آل زنكي وآل ايوب ، ناهيك بالفتن الطائفية بين السنة والشيعة . فكان من حصيلة كل ذلك اندراس المكتبات ، واقفال المدارس ، وضياع الاوقاف المحبسة على تلك المدارس والاعمال الخيرية، وتحطيم الاقلام وتقليص القرائح على ان هذه الكوارث لم تنته بانتهاء القرن الثالث عشر ، وانما استمرت وبرزت على اشدها في مطلع القرن الخامس عشر بحملة تيمور لنك التركي على آل عثمان وعلى بلاد الشام فقضت على البقية الباقية من معالمها الثقافية .

وتجدر الاشارة هنا الى ان العلم كان قد التجأ بعد سقوط بغداد الى مصر وسوريا . وقد رعاه الايوبيون بمصر والمماليك بعدهم فازدهر بمصر ، وانتعش ببلاد الشام التابعة لهم الا انهم طاردوا الفلسفة ولاحقوا ذويها . وفي ذلك الحين تناولت حلب علم الزعامة الثقافية من دمشق حتى قام فيها على رواية محمد كرد علي في خطط الشام « ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة » ولكن هذه المدارس وغيرها قضت عليها حملة تيمور لنك فاضاعت الشهباء ازدهارها .

وعلى كل حال فلولا تلك النهضة العلمية التي برزت بمصر خلال حكم بني ايوب وخلفائهم المماليك وشخوص الطلبة السوريين لتلقي العلم ولاسيما في

ازهر عهودها لاندرست الثقافة فى بلاد الشام، ولما بقي فيها عالم او اديب بالمعنى الصحيح . وعلى الرغم من ان كثرة العلماء امسوا فيها من الحشويين الذين يختارون فى التاويل الغريب المدسوس على الصريح المعقول ، ومن ان اكثر الادباء امسوا يعنون بالالفاظ الرنانة والعبارات المنمقة دون المعاني ، ودون توجيه الشعب للبناء والانطلاق فان البلاد لم يدركها القحط الكلي. بل ظهر فيها من العلماء والادباء نفر اتيح لهم ان يتمتعوا بالشهرة كابن عساكر المتوفي سنة 616 هـ ، وابن الفارض 645 ، وابن الاثير 637 ، وابن تيمية المولود سنة 661 .

عهد السلطنة العثمانية :

كان من المفروض فى بني عثمان الذين اتيح لهم ان يقيموا امبراطورية عظيمة على انقاض الممالك العربية وعلى انقاض الامبراطورية البيزنطية التى كانت فى ذلك العصر منارة العلم فى الغرب ، كان من المفروض ان يستغلوا مخلفات هاتين الامتين وان يعطوا العالم حضارة جديدة او ان يسيروا على الاقل فى مواكب التمدن الحديث . ولكنهم باستثناء سلاطينهم الاولين الذين قلدوا الخلفاء العباسيين برعاية العلم والادب ، وتحلوا بهما انصرفوا عن كل ذلك الى حروب كانت غايتها فى البداية التوسع فى اوربا ، وكان هدفها فى النهاية الحفاظ على مكاسبهم الحربية ، ثم الدفاع عنها تجاه الاتحاد الاوربي المقدس الذى ابرم ضدهم . وبهذا وذاك ظلوا بعيدين عن العلم والادب ، فما حافظوا على ما ورثوه من العرب ، وما اقتبسوا التمدن الحديث من الغرب الا بعد ان اشرفت دولتهم على الانهيار . على انهم ما ان فكروا فى وجوب الخروج من نطاق الجمود وباشروا الاصلاح حتى كان هدفهم ينحصر فى الشؤون العسكرية فانشأ السلطان مصطفى الثالث (1757 م ـ 1774) مدرسة الفنون الحربية . ولكن السلطان محمود الثاني (1808 م ـ 1839 م)ماان اتيح له القضاء على الانكشارية ، هذه الطغمة التى كانت تقف فى وجه التجدد ، حتى عمد الى الانطلاق فى سبيل الاقتباس من اوربا . وفضلا عن بنائه المعهد الطبي باسطامبول فقد اوفد بعثة من الطلبة للتخصص فى معاهد اوروبا . كما ان خلفاءه شرعوا يعنون بالولايات . ولكن عنايتهم هذه كانت لا تتجاوز انشاء مدارس اعدادية وعسكرية كانت الغاية منها اعداد الموظفين للحكومة ، واعداد الضباط للجيش .

واما الشعب فلم يكن احد منهم يهتم به . وهو ، وفى مقدمته العرب ، كان قد استيقظ بالتماس مع العالم الغربي بالمدارس والتجارة والهجرة ، واصبح تواقا للمعرفة ومجاراة الركب العالمي فلم يسعه الا الاقبال على المدارس التبشيرية المختلفة التي انتشرت فى كل مكان علاوة على المدارس الخاصة التى انشأتها الطوائف . فكانت العاقبة ان رعايا السلطنة العثمانية، الذين هم فى الاصل لا يشكلون وحدة قومية، امسوا كتلا متباينة الاهداف فى السياسة ، ومتباعدة فى النطاق الملي . وكل ذلك افضى فى النهاية الى متاعب واجهتها السلطنة عجلت بزوالها .

ومن رعى غنما فى ارض مسبعة
وغاب عنها تولى رعيها الاسد

النهضة الثقافية الحديثة فى الشام :

اثر اختلاط الغرب بالمسلمين فى بلاد الشام والاندلس وصقلية ، وفى اعقاب هجرة علماء بيزنطة الى بلادهم بعد فتح العثمانيين عاصمتهم القسطنطينية سنة 857 هـ ـ 1457 م انتفض الغرب انتفاضة جبارة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كانت منطلقا لحياة جديدة فى الاجيال اللاحقة . ولم تقتصر نهضته على الناحية الثقافية ، وانما تناولت الشؤون الاقتصادية ، وتركزت على القوة العسكرية.

ولكن الغرب على الرغم من انصرافه الى بناء مطرد لم ينس ابدا بيت المقدس . وآية ذلك ان ملك اسبانيا فيليب الثاني اغتنم فرصة وجود الامير فخر الدين المعني الثاني فى ضيافته بصقلية وذلك فى مطلع القرن السابع عشر ، ليعرض عليه التعاون معه على طرد العثمانيين من البلاد المقدسة . ولكن على الرغم من خصومة الامير لهؤلاء ابى واستنكر وفضل العودة الى بلاده على التواطؤ مع الاجانب على دولته ، وعلى مقدساته .

ثم لما جاء عهد الاستعمار وانتقلت المبادرة الى الدول الاوربية ظلت فلسطين ماثلة امام امين هذه الدول ، ولاسيما حين تداعت السلطنة العثمانية ، واصبحت كل واحدة منها تسعى لان تؤمن نصيبها من ارث الرجل المريض .

وقد وضعت اعتمادها على الارساليات التبشيرية التي كانت بمثابة طلائع جيش الفتح لان هذه الارساليات لم يكن يعهد اليها التبشير بواسطة المدارس فقط ، وانما كانت تعمل كدائرة

استخبارات لتسهيل الفتح ، والاعداد له بشتى الوسائل ومهما يكن من أمر فان هذه الارساليات التي ترجع اولاها الى عهد الامير فخر الدين المعني المشار اليه فانها ولا شك عملت لبعث نهضة ثقافية في سوريا ، ولاسيما بلبنان رافقتها نهضة تجارية واجتماعية .

ثم كان لاحتلال نابوليون بونابرت لمصر سنة 1213 هـ ـ 1798 م اثر كبير في نهضة الشرق العربي ذلك لان هذا الفاتح الكبير استصحب معه لوادي النيل بعثة علمية فنية كانت حافلة باشهر علماء فرنسا ، فوضعت التصاميم الاصلاحية وقامت ببعض المشاريع العمرانية التي كانت فيما بعد منطلقا لنهضة هذا المشرق الحديثة في عهد الاسرة العلوية، وخدوييها ولا سيما في لبنان الذي ساهم ابناؤه في النهضة المصرية .

النهضة الثقافية في لبنان :

منذ عني الاوروبيون بطباعة الكتب العربية وترجمتها في مطلع القرن الخامس عشر بادروا للاستعانة ببعض المثقفين من اللبنانيين ، ولاسيما رجال الاكليروس . فانتقل هؤلاء الى روما والى اكثر العواصم الغربية والجنوبية ، وساهموا فيها باعمال الترجمة والطبع والتدريس وقد تولى نفر منهم الوظائف . وسرعان ما كان ذلك حافزا لهم وللمتخلفين منهم للالتفات الى وطنهم ، فانشاوا في عام 1042 هـ ـ 1632 م المدرسة الاولى في قرية حوقه ، والثانية في حلب عام 1073 هـ ـ 1662 م وكانت اولى المطابع تلك التي استجلبها البطريرك اثناسيوس دباس الى حلب في مطالع القرن الثامن عشر . والثانية مطبعة الراهب الحلبي عبد الله زاخر في دير مار يوحنا الطبشة في الخنشارة بلبنان ، وفي غضون تسابق الدول الاجنبية الى فتح المدارس التبشيرية في المدن والقرى في كل من ولاية بيروت ومتصرفية لبنان وغيرهما ادرك البيروتيون ، وعلى راسهم رجال الدين مغبة ترك تربية اولادهم لسواهم فخفت كل طائفة منهم لانشاء المدارس الوطنية .

وكان من نتيجة انتشار العلم في الساحل السوري على وجه عام ذلك الاقبال الشديد الذي برز من قبل مثقفي الشعب على المزيد من فتح المدارس واصدار الصحف ، وانشاء المطابع ، وقراءة الكتب وتاليفها . وقد رافق هذا الاقبال ميل من الشعب لتاليف الجمعيات ولاسيما الادبية والخيرية منها ، ولكن الوضع العثماني لم يكن يشجعهم ولذلك اضطروا في البداية الى اللجوء للتعاون مع الاجانب ، الذين كانت تحميهم الامتيازات من اجل تاليف الجمعيات المنشودة . وقد الف بعض علماء بيروت وادبائها سنة 1858 بالتعاون مع بعض المرسلين الاميركان « الجمعية العلمية السورية » التي كانت غايتها الاهتمام بنشر المعرفة وخدمة الادب فعاشت نحو سبع سنين . ثم لم تلبث ان عادت للحياة في عام 1867 ، واصدت مجلة باسم مجلة مجموع العلوم . ولكنها لم تعش طويلا .

وفي اعقاب ذلك تبدل الوضع في سوريا حينما نصب مدحت باشا الملقب بابي الدستور واليا عليها سنة 1829 م . فهو اذ كان يطمع بالاستقلال في بلاد الشام على غرار خيديوية مصر بتشجيع من فرنسا شرع يتحبب الى اهلها فاطلق لهم شيئا كثيرا من الحرية . وكان الجو الذي بدا في ايام ولايته وما بعدها مشجعا لبعض اهل العلم والادب من البيروتيين لان يؤلفوا المجمع العلمي الشرقي سنة 1881 بالاستقلال عن الاجانب . ولعلهم اختاروا هذا الاسم لجمعيتهم من قبيل التمثل بالاوروبيين ومجامعهم العلمية . ولكن هذا المجمع لم يكمل العامين من العمر . فانبرى بعيد ذلك المطران يوسف الدبس لانشاء الدائرة العلمية المارونية برئاسته . ولم تكن اطول عمرا من سابقاتها . ذلك بان السلطان عبد الحميد الثاني (1876 ـ 1909) لم يكن يرتاح للتكتلات الشعبية ـ الامر الذي ادى الى انحلال الجمعيات الخيرية ايضا ؛ وفي مقدمتها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية . ولولا ان جمعية شمس البر الادبية كانت تستند الى رعاية الاميركان وحمايتهم لما عاشت حتى الحرب العالمية الاولى (1914 ـ 1918) . ولا بدع فلقد كان عهد هذا السلطان شديد الحذر من مؤامرات الدول الاجنبية التي كانت تحاك حوله . والى ذلك فلم يكن يطمئن لشعبه الذي تخرج في المدارس الاجنبية .

وهذا الخوف من الداخل والخارج حمله على التشديد في المراقبة والمعاقبة على الشبهات احيانا . من ذلك ان شاعرا بيروتيا ؛ واظنه مصباح البربير نظم قصيدة غزلية كان مطلعها :

ان حبي كل يوم في ازدياد
والهوى ياتي على غير المراد

فقامت قيامة الولاية في بيروت ؛ وانتصب

الميزان . لماذا ؟ ـ لان للسلطان اخا اسمه مراد كان قد اتهم بالخبل فخلع وبويع السلطان عبد الحميد مكانه . ومن هنا اتهم الشاعر بانه يعرض بالعاهل المخلوع وسيق للمحاكمة .

وفي عهد كهذا ليس من المنتظر ان تتالف الجمعيات، واذا تالفت لم يكن من المقدر لها ان تعيش.

المجمع العلمي اللبناني :

حفل لبنان في صدر القرن العشرين بحملة الشهادات العليا من خريجي المعاهد والمدارس الموفورة فيه ، ومن خريجي جامعات الغرب . ولما اصبح له كيان سياسي في عهد الانتداب الفرنسي بالقانون الاساسي والحكم الدستوري اتجهت انظار الطبقة المثقفة فيه الى ان تكون له هيئة تمثل وجه وطنها الثقافي . وذلك بانشاء مجمع علمي اسوة بسوريا منذ عام 1919 . وكان الشيخ ابراهيم المنذر الاديب الكبير عضوا في المجلس النيابي اللبناني فاثار هذا الموضوع . ثم كانت له وقفات حوله قوية خلال عام 1927 سرعان ما اثمرت فقرر المجلس انشاء المجمع المنشود على الرغم من ان الانتداب الذي كان يشجع اللغة العامية بلبنان ضمن نطاق تبعيده عن شقيقاته لم يكن راضيا عن هذا العمل . واستنادا الى قرار المجلس المذكور اصدر رئيس الجمهورية الاستاذ شارل دباس قانونا بانشاء مجمع علمي لبناني وذلك في 20 شباط 1928 غايته المحافظة على اللغة العربية ورفع شانها ، والعناية بالمباحث والاعمال المتعلقة باصولها وآدابها والمحافظة على الآثار ، ودراسة تاريخ لبنان وجغرافيته ، وغير ذلك مما يتعلق بادارة الشؤون العلمية وتنظيمها . واصدر مرسوما آخر بتعيين السادة الآتية اسماؤهم اعضاء لهذا المجمع : الشيخ ابراهيم المنذر ، والشيخ عبد الله البستاني، والشيخ امين تقي الدين (1) ، والشيخ منير عسيران، والشيخ محمد الحسيني، والاستاذ بولس خولي ، والبطريرك اغناطيوس افرام الرحماني ، والشيخ عبد الرحمن سلام ، والخولي بولس عبود ، والاستاذ وديع عقل ، والاستاذ الياس فياض ، والشيخ احمد عمر المحمصاني ، والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، والاب لويس المعلوف ، والشيخ حسين مغنية .

وفي التاسع من شهر اذار 1928 افتتح المجلس اعماله بحضور الشيخ بشارة خليل الخوري رئيس الوزراء الذي كان وزيرا للتربية الوطنية ، وانتخب مكتبه التنفيذي على الوجه التالي : الشيخ عبد الله البستاني رئيسا ، والشيخ احمد عمر المحمصاني ، والاستاذ وديع عقل ، معاونين للرئيس. وقد اتخذ المجمع في اول الامر وزارة المعارف والتربية مقرا له ، ثم انتقل الى دار الكتب الوطنية، ووالى اجتماعاته فيها الى ان استقل في دار له خاصة .

وقد حالت بعض الاسباب دون اشتراك السادة عبد الله البستاني والاب لويس معلوف ، والاستاذ عيسى المعلوف ، والشيخ محمد الحسيني والشيخ حسن مغنية في جلسات المجمع الاولى فقرر اعتبارهم اعضاء مراسلين وانتخب بدلا منهم السادة : الشيخ علي زين ، والخوري جرجي سنيني « الذي اصبح من بعد مطران السريان بدمشق » ، وجرجي صفا ، واسد رستم ، ومحمد جميل بيهم . ونتيجة لهذا التبديل اجتمع المجمع في 25 تشرين الاول 1928 وانتخب الاستاذ وديع عقل رئيسا له ، والياس بك فياض والشيخ ابراهيم المنذر معاونين وذلك لمدة عام . وقد وضع المجمع خلاله نظامه الداخلي .

ولما ازف موعد الانتخاب في السنة التالية ، وشعرت السلطة ان نية اكثر اعضاء المجمع منصرفة لانتخابي للرياسة تحركت فورا لاني كنت من اشد المعارضين بلبنان للانتداب ، والمنادين بالوحدة العربية . وقد عهدت الى الشيخ بشير الخوري المندوب من وزارة المعارف للاشراف على الانتخابات السعي لتوجيه الاعضاء الى تجديد الرياسة للاستاذ وديع عقل ، وذلك في جلسة الانتخاب المحددة في 18 تشرين الاول 1929 ولما باءت مساعيه بالفشل تحول بكليته الي ، وشرع يقنعني بالتخلي عن الرياسة للاستاذ عقل لسنة اخرى على ان اعلن ذلك ارتجالي. فكان جوابي له :اني لم اكلف احدا منهم ان ينتخبني، كما اني لا اعلم من هو المرشح عند كل منهم فكيف يسوغ لي من بعد ان اطلب منهم ان لا ينتخبوني لمنصب الرئاسة واعرض نفسي لقول قائل : من اخبرك اني مزمع ان اصوت لك ؟ . ولما استولى عليه الياس اجل الانتخاب ريثما يقابل نسيبه الرئيس

(1) وهم من المشايخ المدنيين الذين تحمل اسرهم هذا اللقب .

الشيخ بشارة الخوري . ولم يلبث الا قليلا حتى عاد حاملا الي بشرى الوعد بتعييني وزيرا للمعارف والتربية الوطنية اذا تخليت عن رياسة المجمع . فقلت له مبتسما انت تعلم يا شيخي اني لست من طلاب الوظائف ، كما تعلم ايضا ، مما نشرته الصحف في حينه ، اني كلفت باشغال مناصب عالية من قبل فرفضت التعاون مع العهد ، فكيف تريدني التحول الآن عن مبدئي ؟ فما وسع البشير الا السكوت على مضض . ولما جرى الانتخاب يومئذ اسفر عن احرازي معظم الاصوات للرياسة ، وعن انتخاب الشيخ ابراهيم المنذر والاستاذ سعيد عقل معاونين لها . وهنا مجال للتنويه بالاستاذ عقل هذا الرجل الوطني الموهوب ذلك لانه تعاون معي في نطاق خدمة المجمع وكان شيئا لم يقع من قبل؛ وكرس جريدته الراصد للتكلم بلسانه .

وكانّ اول عمل باشره المجمع بعد ذلك تطبيق نظامه الداخلي الموضوع في العام الفائت بتوزيع تقسيم اعضائه على اربع لجان عهد الى كل منها ان تعمل بجد ونشاط ضمن نطاق المهمة الموكولة اليها وهي :

اللجنة الاولى « الادارية » ومهمتها القيام بالاعمال الادارية ، وتحضير الموازنة المالية كل عام . وكانت تتالف من السادة : محمد جميل بيهم ووديع عقل وابراهيم المنذر .

اللجنة الثانية « اللغوية » ومهمتها التدقيق في وضع الكلمات والمصطلحات للمعاني العلمية الجديدة والمسميات الحديثة . والتعاون مع المجامع العلمية العربية الاخرى توصلا لوضع معجم يوفي حاجة العصر . وكانت تتالف من الشيخ منير عسيران ، والشيخ ابراهيم المنذر والياس بك فياض والشيخ امين تقي الدين .

اللجنة الثالثة « لجنة التاريخ والجغرافيا » وعهد اليها بالاضافة الى التحقيقات التاريخية وضع معجم جغرافي للبنان على اسلوب علمي حديث . وكانت تتالف من الاساتذة اسد رستم . وبولس الخولي . والخولي جرجس ستيتي . والسيد علي الزين ومحمد جميل بيهم .

اللجنة الرابعة « لجنة المخطوطات » وعهد اليها بوضع احصاء عام للمخطوطات العربية في الجمهورية اللبنانية ، وترتيب تدوينها على طريقة علمية تسهيلا لمراجعتها . وكان قوامها الشيخ احمد عمر المحمصاني ، والشيخ عبد الرحمن سلام ، وجرجس بك صفا .

وقد قامت هذه اللجان بما عهد اليها على خير وجه في جو من التعاون والوئام ورفعت الى المجمع تقاريرها لتكون اساسا للبحث والاقرار ، ومن ثم للتنفيذ .

تقرير اللجنة الادارية :

تناول التقرير الاوضاع العلمية والادبية في البلاد العربية ولاسيما لبنان كما تناول انشاء المجمع العلمي اللبناني واعماله منذ نشأته حتى ذلك التاريخ، واشار الى ما عقد العزم على تحقيقه في تلك السنة وما بعدها . ولاسيما في حقل توثيق العلاقات بينه وبين المجامع العربية الاخرى . كما انه اشار الى بعض الدعوات الخارجية التي وردت له، وعلى راسها دعوة المجمع الادبي العام في باريس .

تقرير اللجنة اللغوية :

بعد ان اكد التقرير ضرورة التعاون مع سائر المجامع العلمية العربية ، وبعد ان اشار الى آراء طائفة من اكابر كتاب العرب بشان اصلاح اللغة توصلت اللجنة الى الاستنتاج بأن هؤلاء على خلاف في وجهة المسير . فبينما يقبل بعضهم ما يقرره الافراد المعنيون باللغة فان البعض الآخر كان يرى ان للمجامع وحدها الحق في وضع الكلمات الجديدة. وقال التقرير في التعليق على ذلك بناء على ما تقدم راى المجمع العلمي اللبناني قبل ان يجزم في هذا الشان ان ينتدب رئيسه الحالي الاستاذ جميل بيهم فيقصد مصر . ومصر اليوم قلب العالم العربي النابض ، ويسعى لايجاد صلة بين الهيئات اللغوية والمجامع العلمية في الاقطار العربية تمهيدا لعقد مؤتمر عام يجتمع في كل سنة لاجل التعاون والتفاهم على الطرق السوية لترقية اللغة العربية .

ولقد سافر الاستاذ الرئيس الى مصر فقابل وزير المعارف ، وصاحب الدولة مصطفى النحاس باشا وبسط لهما مهمته فلقي منهما الارتياح التام . ثم اخذ يبث الدعوة بين جمهور المفكرين العاملين . وساعده على ذلك بعض اهل الفضل والوجاهة بما عقدوه من حفلات لهذه الغاية . وقبل مغادرته مصر تالفت لجنة في القاهرة من كبار مفكريها وعلمائها جعلت همها السعي لتحقيق هذه الغاية . ولم يطل العهد حتى نقلت الينا الصحف البشرى بانشاء المجمع المصري للثقافة العلمية وترقية اللغة العربية »

وبعد ان اشار التقرير الى البيان الوافي الذي وضعه سنة 1928 الشيخان عبد الرحمان سلام ، واحمد عمر المحمصاني في كيفية المحافظة على اللغة العربية ، واوجزه بما ورد في الختام : «لذلك نرى ان باب الاشتقاق في اللغة العربية يجب ان يفتح على مصراعيه توصلا الى استخدام الافعال والصفات المتعلقة بها حسب مقتضيات العصر ، فيتسع بذلك مجال الانشاء ، ولا يعاني طلاب العلم والكتاب ما يعانون من المشاق والمصاعب » ومضى يقول : « وسننظر فوق ما تقدم في اصول اللغة ، اي قواعدها الاساسية المتخذة حجة لصحة الكتابة والانشاء . وهي في كل فرع من فروع الصرف والنحو والعروض والبيان وغيرها لا تزال على حالها منذ وضعها الائمة لم يطرح منها باب ، ولا عدلت قاعدة لذلك شق تحصيلها على طلابها لانهم رزحوا تحت اعبائها ، وضاعوا بين المؤلفات الضخمة ، والآراء المتباينة ، والقواعد المعقدة التي يجب ان تطرح من كتب اللغة تسهيلا لتناولها . ولا يخفى ما في تحقيق هذه الامنية من الصعوبة تجاه المتمنتين . ونحن نتوخى في كل حال المحافظة على عظمتها وتعابيرها الشالمة مستعينين باقطابها المدققين العاملين الضاربين في مشارق الارض ومغاربها » .

تقرير لجنة التاريخ والجغرافيا :

اشار التقرير الى اهتمام اللجنة بتاريخ لبنان وجغرافيته ليقف الواطن على احوال بلاده وقوفا صحيحا ويلم بكل ما فيها من المعالم والآثار بالاضافة الى تراجم كبار اللبنانيين الذين تركوا خير ذكر في العلم والادب او الوجاهة مع العمل البناء ثم مضى يقول :

« لما كان العالم العربي في الشرق والغرب في حاجة الى المجامع الكاملة عن بلاده ترى اللجنة ان يعنى المجمع في بدء اعماله ، عناية خاصة ، بوضع معجم جغرافي لجميع البلدان والقرى والمزارع والانهار والجبال في الجمهورية اللبنانية ، وان يكون لهذا المعجم الجغرافي مقدمات عامة في جغرافية لبنان السياسية والاقتصادية والتاريخية مصحوبة ببعض مباحث في جيولوجية لبنان ومناخه ونباته وحيوانه وذلك بالاستعانة بفريق من اساتذة الجامعتين الاميركية والفرنسية في بيروت . فطلبنا الى حضرة الاب هنري لامنس اليسوعي ان يتولى كتابة المقدمة التي تتعلق بجغرافية لبنان التاريخية ، والى الاب جبرائيل لوفتك ان يكتب مقاله في جغرافية الجبل الاقتصادية كما انا رغبنا الى بعض اساتذة الجامعة الاميركية في بيروت ، وهم الفريد داي ، ويوليوي برون ، والدكتور ويليم فانديك الكتابة في جيولوجية لبنان ومناخه وحيواناته ونباته ومياهه . واما القسم الاكبر من العمل في هذا المعجم ، وهو جمع حقائق عامة في الجغرافيا والتاريخ عن البلدان والقرى والمزارع اللبنانية ، وترتيب هذه المباحث وتنسيقها وضبطها فقد شرعت به هذه اللجنة وطبعت جداول تمهيدية لوضع القاموس العام . وفي كل منها حقول متنوعة تتناول المدن والقرى وعدد النفوس فيها ، والمذاهب ، والانهار والينابيع والجبال والمناجم والمعابد والمقامات والمعامل والمعاهد العلمية ، ومواطن الآثار ، واهم الحاصلات الزراعية والمنتوجات الوطنية الى غير ذلك من الشؤون عدا اماكن الاصطياف ، ورفعنا هذه الجداول الى وزارة الداخلية الجليلة لتامر بتوزيعها على المحافظين والمديرين والمختارين في الجمهورية اللبنانية . وقد اعيدت الجداول المذكورة معبأة ، وعهد بها الى هذه اللجنة لتصحيح ما يحتاج التصحيح . ولتنسيقها.»

تقرير لجنة المخطوطات العربية القديمة :

اشار التقرير الى الصعوبات التي تعترض من ينقب عن هذه المخطوطات ، ولاسيما لان اكثرها كان موزعا على مكتبات خاصة لم تعمل بعد ايدي الباحثين للتحري عنها . واكثرها غير معروف ثم بينت اللجنة انها بدات باحصاء ما في مدينة بيروت ، وانها ستشرع من بعد في البحث عما يوجد في غيرها من المخطوطات حتى اذا اكتمل العمل تنظم منه معجما محيطا ليسهل الرجوع اليه على ان يشمل هذا المعجم اشارة الى موضوع كل كتاب . والى الزمن الذي وضع فيه ، واذا كانت له مزية اخرى . وختمت اللجنة التقرير بذكر ما احصته في مكاتب بيروت الكبرى من المخطوطات فكان كما يلي :

مكتبة الجامعة الاميركية :

183 مجلدا و 134 رسالة

مكتبة الآباء اليسوعيين :

245 مجلدا و 44 رسالة

دار الكتب الوطنية :

48	مجلدا	و 20	رسالة
476		198	

وفي هذه المناسبة يطيب لي ان اذكر ان مكتبة المخطوطات في داري تحتوي على 41 مخطوطة بعضها ليس له نسخة ثانية في المكتبات الاخرى .

الى الامام في خدمة العرب والعربية

وقد استمع المجمع الى تقارير لجانه وناقشها ، وحث اعضاءها على المزيد من النشاط حبا بالقيام بالتبعة الملقاة عليهم على حير وجه . وقرر في الجلسة التي عقدها يوم 29 اذار 1929 تكليفي بأن اتصل بالمجمع العلمي العربي بدمشق من اجل التعاون على تحقيق فكرة المؤتمر اللغوي العام الذي كنت دعوت له في مصر فانجزت ما تقرر .

هذا وكانت جريدة البرق نشرت مقالا لصاحبها الاستاذ بشارة الخوري اقترح به على المجمع اكمال دائرة المعارف التي اصدر بعض اجزائها الاستاذ بطرس البستاني قبل حين فرحب المجمع بهذا الاقتراح وفوض الى اثنين من اعضائه : الشيخ عبد الرحمن سلام والاستاذ جرجس صفا ، لدرس هذا الموضوع وليعدم كل منهما تقريرا في الوسائل التي يمكن بها تحقيق هذا الاقتراح . وفضلا عن ذلك فقد قرر انشاء ناد يشتمل على مكتبة عامة ، ومجلة عربية على ان يجعل من هذا النادي دارا للمحاضرات ومحجا لطلاب المعرفة .

الغاء المجمع العلمي اللبناني :

كان بين الاستاذين المحاميين اميل اده والشيخ بشارة الخوري تنافس على الرياسات في عهد الانتداب وبعده . فلما خلف الاستاذ اده الشيخ بشارة على رئاسة الوزارة ، وهو رائد من رواد عدلة لبنان واعتماده على فرنسا لم ترق له اتصالات المجمع العلمي اللبناني بالمجامع العلمية واللغوية العربية . لذلك فوجيء المجمع في عهده بمرسوم صادر عن رئاسة الجمهورية مؤرخ في 3 شباط 1930 يقضي بالغائه تحت ستار التوفير على الخزينة . فكان لهذا المرسوم اثر سيء ، ولا سيما على اعضائه الذين كانوا يوفون الخدمة حقها ، ولا يريدون جزاء ولا شكورا ؛ فقدموا استدعاء الى وزارة الداخلية بطلب الترخيص لهم لمتابعة العمل باسم المجمع المذكور دون الاعتماد المالي . ولكن المجمع اضطر فيما بعد الى التوقف لان مؤسسة كهذه عليها ما عليها من النفقات لا يطول عمرها اذا لم تمدها الحكومات بالمساعدة . ثم ما برح اعضاء المجمع ، الذين كانوا يشعرون بالفراغ ، يطالبون باعادته . وقد استجاب لهم المجلس النيابي عام 1944 . وقرر تخصيص مبلغ من المال لاعادة المجمع . ولكن الحكومات المتتابعة ضربت صفحا عنه فقضى نحبه هكذا قبل القطاف .